القضايا الإنسانية في افلام شارلي شابلن

بقلم فاروق سعد

« الكوميديا شيء عجيب ، هي شيء معقد يتطلب ادق دراسة للشخصية الانسانية ، وليس الممثل الكوميدي مجرد عالم بل هو ايضا انسان فنان مشبع بالعطف على الناس ، ومدرك لمشاكلهم المختلفة . فهو مطالب بان يعرف ما الذي يضحك الناس وما الذي يبكيهم وما الذي اضحكهم فيما سبق وما الذي يضحكهم الان » .

« شارلي شابلن »

*

ميزة افلام شارلي شابلن هي انها كلوحات « بيكاسو » و «دالي » او شعر « ايلوار » و « ناظم حكمت » او قصص ومسرحيات «برنارد شو» و « سارتر » « وشتيانبك » او موسيقى « خشتادوريان » : سجل كامل يؤرخ للنمو الحضاري والقضايا الانسانية في القرن العشرين .

افلام شارلي شابلن فلسفة كاملة تتناول الجوانب النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسيه لعالم القرن العشرين منذ بداية الحرب العالمية الاولى حتى اليوم .

١ ـ بين عالمين .

ان انسان القرن التاسع عشر يواجه ببزوغ القرن العشرين عالما جديدا متطلباته كثيرة وظروفه تختلف اختلافا بينا عن ظروف القرن البائد ... لقد اصبح العيش يتطلب صراعا كبيرا بين قوى غير متكافئه .. صراعا انتقل الى الدول نفسها ، فلقد بدأ القرن العشرون لاول مرة في التاريخ البشري بحرب عالمية لم تخل من ساحاتها بقعة من الارض ... لقد ظهرت في المجتمعات الجديدة طبقة تعيش على هامش المجتمع .. ان « الرجل الصغير » (Little Fellow) يعبر عن تلك الطبقة المحرومة من الحياة السعيدة .. الطبقة التي نبذها المجتمع ... هذه « النكرات » تضطر الى الاستعانة بكل الوسائل ولو كانت غير مشروعة عرفيا للحصول على ما تحتاج اليه ، بل انها ترى نفسها مرغمة دائما على ان تظهر بمظهر يختلف عن واقعها وحقيقتها .. ان زي شابلن الذي ظهر به في افلامه الاولى « القبعه . القميص الانيق . الجاكته الضيقة المزرره . البنطلون الفضفاض . الحذاء الكبير . العصا والمشيه الشاذة) كل ذلك يعبر عن هذا المظهر .. مظهر الرجل المدعي..

٢ ـ شابلن والضمان الاجتماعي والحب ..

سبل العمل صعبة الولوج .. وهذا هو شارلو ينتقل من مهنة الى مهنة ليكسب عيشه .. حينا يشتغل جرسونا في مقهى (Charlot garçon de café 1914)

وحينا يعمل جرسونا في مسرح (Charlot garçon de théatre 1914) ولا يتردد في ان يشتغل اطفائيا (Charlot pompier 1916) او شرطيا (Charlot policman 1916) ويصل به الامر الى احتراف الملاكمة (Charlot boxeur 1915) ولكن كان لابد من تشرده من وقت لاخر (Charlot vagabond 1915)

ويأتي فيلم « حياة كلب » (La vie d'un chien 1918) ليجسم ماساة فقدان الضمان الاجتماعي . ان صورة هذه الطبقة الجديدة التي تعيش على هامش المجتمع تظهر واضحة في هذا الفيلم . فافراد هذه الطبقة يتصارعون على لقمة العيش .. انهم يتصارعون فيما بينهم جميعا وحتى مع الحيوان : شارلو وكلبه يتعاونان في البحث عن الطعام . شارلو لا يتردد ان يخطف الطعام من الكلاب ليتقاسمه هو وكلبه غير مبال بالمعركة التي دارت بينه وبينهم حتى نجح في انتزاعه . وجاء فيلم «البحث عن الذهب » (La ruée vers l'or 1925) ليعبر في فصله الاول عن القساوة والوحشية اللتين يلفهما هذا الصراع احيانا .. ان معركة الثلوج ومعركة الكوخ المعلق على المنحدر يجسمان هذا المعنى تجسيما فكاهيا ولكن هذه الطبقة لا تكافح بدون سبب . انها تصبو الى العمل للحصول على الحياة والحب والكرامة ، والفصل الثاني والثالث من فيلم « البحث عن الذهب » وفيلم « انوار المدينة » (Les lumières de la vile 1931)

وفيلم « اضواء المسرح» (Limelight 1952) تعبر عن هذا الهدف تعبيرا ملحميا رائعا .

ان المرء لا يستطيع ان ينسى كيف اضطر شارلي في فيلم « اضواء المدينة » ان يمثل دور الرجل الغني ، مع بائعة الزهور العمياء وهو الرجل العاطل عن العمل المنبوذ من المجتمع .. انه يسعى الى اسعاد المسكينة .. ويبقى الى النهاية يحافظ على دوره الجديد ... دور الرجل الغني . انه لا يدري لماذا يفعل ذلك .. ولكنها الاقدار ...

وهذا الفنان «كالفيرو» في اضواء المسرح ... هو في صراع مع عاطفته وواجبه ... انه صراع شاعري يشكل « ماساة متفائلة » على حد تعبير سادول (١) .. ان « كالفيرو » الممثل الكوميدي الكبير ينقذ من الموت راقصة شابة يائسة (تيري) كانت تحاول الانتحار بسبب شللها .. انه يعيد اليها الامل في الحياة وتشفى الفتاة لتعود الى ميدان الرقص ولترتفع الى القمة .. ويفطن « كالفيرو » الى انه اصبح كبير السن وعاجزا عن

(١) جورج سادول : ناقد جريدة « الاداب الفرنسية » السينمائي ، استاذ تاريخ السينما في « معهد الدراسات السينمائية العليا بباريس محاضر في تاريخ اللغة السينمائية « الفيلمولوجيا » في السوربون . له مؤلفات شهيرة في تاريخ السينما .

اضحاك الجمهور .. فييأس وينتهي به الامر ان يصبح فردا في فرقة للعازفين متنقلة بين المدن والقرى . . لقد تزوجت « تيري » برضاه شابا في مثل سنها وهو الذي يحبها لا يستطيع ان يتزوجها .. انها في عمر ابنته .. وتأتي « تيري » الراقصة المشهورة الى « كالفيرو » فتشجعه ثم تقنعه بالاشتراك في حفل خيري كانت قد نظمته (ولم تعلمه انها نظمت الحفل لاجله وحده) .. ويظهر « كالفيرو » على المسرح في ادواره القديمة ويرتفع الى القمة .. لقد نجح نجاحا هائلا .. ولكنه لا يلبث ان يسقط ميتا وراء الكواليس بينما تكون « تيري » ترقص امامه اخر رقصة لها في حياتها .. هذه الرائعة السينمائية تتضمن خمسة مواضيع انسانية حددها « جاستون بونور » (١) على الشكل التالي : مأساة الشيخوخة والموت . الثقة العميقة بالحياة . معنى الاحترام للانسان . الكوميديا التي تضحك رغم انها لاتهدف الى ذلك . الحب باعتباره معطى كاملا قائما بنفسه .

٣ ـ الانسان والالة والانتاج .

يمكن ان نبدا تخطيط المرحلة الاولى من تفكير شارلي شابلن الاقتصادي « هروب جتني ١٩١٥ » حيث يسخر شارلي بطريقة غامضة من السيارات .. وجاء فيلم « الازمنة الحديثة » (Les temps modernes 1936) ليعرض دراسة كاملة تشمل اغلب اراء شارلي شابلن الاقتصادية .. لقد تناولت هذه الدراسة السينمائية جميع القضايا العارضة والمستعرضة في الانتاج والقضايا العمالية والرسمال .. وهذا الفيلم يتناول جميع هذه القضايا بطريقة كوميدية معبرة .. صاحب المصنع لا يفكر الا في الربح باقصر الطرق وباقل التكاليف ، وقضايا العامل اعمق من ان يكون له عمل يعتاش منه ، فانها قضايا حيوية ترتبط بالعدالة الاجتماعية والحياة الانسانية عامة .

يبدا فيلم شابلن بلقطتي مقارنة : خراف سائرة في اللقطة الاولى ،وعمال ذاهبون الى اعمالهم في اللقطة الثانية ثم تتابع المشاهد ... اننا نرى العمال البشر كالالات يقومون باعمالهم بطريقة روتينية جامدة .. وليست المشكلة هنا ، بل هي في ان اي عامل لا يستطيع الراحة ابدا خلال عمله .. ان شارلي يعرض لهذه الفكرة عن طريق المفارقات المضحكة. ثم يعرض للمآسي التي تتولد عن تكالب اصحاب المصانع على مضاعفة الانتاج ولو عن طريق ارهاق العامل ارهاقا يتجاوز الطاقة البشرية ... ان احد المهندسين يخترع لادارة المصنع الة تتولى اطعام العمال ، ولكن لماذا هذا الكرم من الادارة؟هذا الكرم هدفه اولا وقبل كل شيء توفير وقت راحة العمال على الادارة ولكن لوحدث وتعطلت احدى هذه الالات ترى ماذا يحل بالعامل المسكين ؟.. ان شارلي يعرض هذه الفكرة بطريقة مرحه عندما يختارونه هو نفسه لتجربة هذه الالة ، ويسير الامر في البدء بطريقة تسر شارلي ، ولكن ما ان يبدا الخلل يدب في الالة حتى ترى كل شيء كان يتولى اطعام شابلن يقوم بدور الملاكم .. وبسقط شارلي تحت اقدام الالة الجهنمية وهو مصاب برضوض بالغة .. ويذهبون به الى المستشفى لاصابته بانهيار عصبي.. وشفي بعد مدة قصيرة . ولكن عندما يعود الى المصنع ليتابع عمله تغلق الابواب في وجهه . ويسير متسكعا في الطرقات ويقبض عليه اثناء مروره صدفة قرب مظاهرة وبتهم بالشيوعية ـ حسب العادة المالوفة ـ ويدخل شارلي السجن .. ويعجبه المناخ .. ولم لا؟..انه يستطيع ان يعيش على الاقل.. ويحاول شارلي ان يعود الى السجن بعد اطلاق سراحه ولكن عبثا يفعل .. ويكون الى جانبه فتاة صغيرة متشردة مثل والدها العامل المتعطل اثناء مظاهره . ولعل منظر الكوخ المهجور يمثل قناعةالانسان الفقير انم تمثيل .. ان منظر الكوخ الذي تتحول كل شيء فيه الى حطام بمجرد لمسه ينير في نفس المتفرج الشعور بالضحك ، ولكن لا تلبث ان تمثل امامه الماساه لتخفي البسمه وتتحول نظراته الى نظرات مشبعة بالاسى والاشفاق .. وعلى الرغم من هذا كله ، فان شارلي حسب عادته دائما يدعو الى الامل والتفاؤل.. ان المنظر الاخير ينتهي بحكمة وضاءة تكررت في « البحث عن الذهب » وفي « انوار المدينة » « واضواء المسرح » : (يجب ان لا نفقد الامل) .

ان «جورج سادول» يربط بين فكرة اخراج شارلي لهذا الفيلم وبين ازمة سنة ١٩٢٩ الاقتصادية التي اجتاحت العالم وخاصة اوروبا والولايات المتحدة . وقد ولدت هذه الازمة مشاكل اجتماعية واقتصادية متعددة كان اهمها مشكلة البطالة .

ولقد هاجم شارلي في « الازمنة الحديثة » الاحتكار والاستغلال وبصورة اعم هاجم اغلب اشكال النظام الراسمالي .

٤ ـ عدو الفاشستية والديكتاتورية والصهيونية ..

وجاء عام ١٩٤٠ اي بعد سنة من وقوع الحرب العالمية الثانية . كانت الديكتاتوريات النازية والفاشستية قد بدات تنمو في اوروبا وتتسرب الى الحياة الدستورية في اغلب الدول ... وبدا العالم يشعر بخطرها.. وفي ١٥ تشرين اول سنة ١٩٤٠ عرض فيلم « الديكتاتور » للمرة الاولى.. ان هذا الفيلم من اروع الوثائق التي تعرض مساوىء النازية والفاشستية بطابعهما الديكتاتوري العنصري.. لقد رمز شارلي في هذا الفيلم الى شخصية هتلر بشخصيه « هنكل » ورمز الى شخصيه موسوليني بشخصية « بانوليني » .

ان « هنكل » يرقص بالكرة الارضية كما كان يرقص هتلر ولم يكن هناك فرق الا ان هنكل يرقص بمجسم كرة ارضية بينما كان هتلر يرقص بكرة ارضية حقيقية ... وكان شارلي كان يفطن الى نهاية هتلر فاذا الكرة الارضية تنفجر بين يدي « هنكل » الذي يقفز ليتعلق بالستائر وهو ينظر نظرات جزعه لا تخلو من يأس وبلاهة ..

ان الدكتاتور يريد ان يجعل الجماد نفسه يرضخ له .. فالتماثيل المقامة في الاماكن العامة تحني رؤوسها محيية عند مرور عربة « هنكل » امامها . وفي هذا الفيلم كما في فيلم « الازمنة الحديثة » وسواه من الافلام نرى شابلن يؤمن بالمستقبل الخالد ... وهذا هو النداء الخالد في فيلم الدكتاتور : (انظري يا حنه ـ ويرى سادول ان شارلي يرمز الى امه التي ماتت منذعشر سنوات .. ـ لقد اعطوا النفس البشرية اجنحة وبدا الانسان يرتفع الى السماء .. ان روحه تصعد الى الغد والى المستقبل المجيد الذي سيكون لك وسيكون لكل واحد منا .. للجميع ... ارفعي عينيك يا حنه انظري الى السماء .. حنه .. هل تسمعين؟.. اسمعي ...)

وعلى الرغم من ان شارلي يدين باليهودية فان له اراء تهاجم دولة اسرائيل والحركة الصهيونية كانت من جملة الاسباب التي ادت الى خروج شارلي شابلن من امريكا كما هو معروف ـ وكنا نود التوسع في عرض افكاره تجاه الصهيونية ولكن هذا يخرج بنا عن نطاق موضوعنا الذي قصرناه على تحليل اراء شابلن من خلال افلامه فقط .

٥ ـ الحرب والسلام

كما ان لوحات « غورنيكا » (Guernica) «والحرب»(La guerre) « والسلام » (La paix) « لبيكاسو » او لوحة « خرائب الحرب » (Les desastres de la guerre) لجوبا او قصة « الحرب والسلم » لتولستوي او مسرحية « ثورة الموتى » لاروين شو وغيرها من الاثار الفنية الرائعة قد خلدت معنى السلام والحرب ، فان

(١) احد اعلام السينما الافرنسية .

من الضروري ان نضيف فيلم شارلي شابلن «مسيو فردو»
(Monsieur verdoux 1947)

الى هذه الآثار الخالدة » .

لقد اوضح شارلي شابلن مضمون فيلمه « مسيو فردو » في حديث صحفي عندما قال : (انه قاتل بالجملة – يعني مسيو فردو – وقد حاولت ان اظهر في حالته النفسية تعبيرا لمدنيتنا المعاصرة التي تريد ان تحولنا جميعا الى سفاكين بالجملة .. وطيلة حياتي وانا احارب العنف واظن ان القنبلة الذرية – وهي ابشع سلاح عرفته البشرية – تظهرنا على مبلغ الرعب والخوف الذي سيصيبنا ويزيد انصاف المجانين في حياتنا ... وفي « مسيو فردو » قمت بسلسلة من الجرائم دون ان اعاقب عليها ثم قبض علي واعترفت بذنبي ولما دعاني ممثل الاتهام بسفاك بالجملة اجبته بادب ان روح القتل مسيطرة على العالم ونظرت في هدوء اليه والى عينيه) .

لقد عبر شارلي بحرارة عن معنى السلام في فيلم « مسيو فردو » .. ان اخراج شبلن لهذا الفيلم يعكس رغبة البشرية في السلام بعد ان قاست الامرين من الحرب التي هي مجرد « قتل جماعي » وبصورة اخرى لا تخرج عن حد الجريمة .

٦ – شارلي وماساة القلق والحرية .

لعل من الضروري الربط بين فيلم « المهاجر » (١٩٢٧) وفيلم (ملك في نيورك (Un roi à New-York 1956-1957) فالواقع ان فيلم « المهاجر » ونظرته الى الحياة الامريكية وخاصة معالجته لقضية الحرية تجعل العلاقة قوية بينه وبين فيلم « ملك في نيويورك » ، ولعل اقوى تحليل لهذا الفيلم هو التحليل الذي كتبه الشاعر « لويس اراغون » سنة ١٩٢٧ : (نحن ننكر هذا المنظر الفاجع لركاب الدرجة الثالثة على المركب وقد صنفوا او الصقت عليهم البطاقات ، ثم همجية رجال السلطة وهم يفحصون المهاجرين ويمدون ايديهم القذرة الى النساء تحت نظرات تمثال الحرية الذي يحمل المشعل ليضيء ظلام العالم .

ان هذا المشعل الذي يحمله تمثال الحرية لا يعكس لنا في افلام شارلي الا ظل التهديد والوعيد من جانب رجال البوليس وهم يطاردون البؤساء والفقراء .)

انما لا نستطيع ان ننكر ان فيلم « ملك في نيويورك » لا يتخذ معناه كاملا الا اذا ربط بحياة شابلن بكاملها والمعتقدات التي كانت تلك الحياة عليها وبالرجل الذي خلقته هذه الاشياء كلها . « وهو بالتالي يعطي فكرة عما « استخلصه ذلك الانسان من تجربته للحياة الامريكية . » ان تجربة شارلي للحياة الامريكية كانت امتحانا ناجحا اداه في « ملك في نيويورك » .. ان هذا الفيلم يخطط ظروف ومظاهر هذا المجتمع القلق ، رقصة « الروك اندرول » ، مندوب شركة الاعلانات وتصرفاته ، عملية تجميل وجه الملك شاهدوف ونتائجها ، افلام الكاوبوي » .

واخيرا ، وهذا هو هدف شارلي الاول ، فانه يعرض لنا في فيلم « ملك في نيويورك » قضية الحرية في امريكا عندما يعرض لتحقيق « لجنة النشاط المعادي لامريكا » مع الملك شاهدوف .

ومن مظاهر القلق (Angoisse) في القرن العشرين رقصة « الروك اند رول » فهي كالسريالية والوجودية وقصص ساغان وتمثيل جيمس دين والقصة البوليسية تعكس صورة هذا العالم الذي قاسى حربين ذهبتا بحياة الالاف من البشرية ، صورة من يخشى او يتوقع حدوث شيء مجهول لا يدري كنهه .. وهنا القلق .. لقد شكل عند عدد كبير من الناس (مركب) الرغبة في استنفاد لذائذ الحياة في اقصر مدة خوفا من حدوث هذا المجهول ... ان المظاهر الجنونية التي نظهر على راقصي الروك اند رول في فيلم « ملك في نيويورك » والموسيقى الصاخبة التي يتحركون على انغامها تجسم هذا الاستنفاذ للذائذ ...

اما مندوب شركة الاعلانات فهو وقح لا يراعي اي ذوق اجتماعي ولا يحترم أحدا .. انه يعتبر الملك « شاهدوف » مادة دسمة للاعلان عن المشروبات الروحية .. مادة فقط .. انه يدخل معه الحديث مباشرة ثم لا يلبث ان يساوم بالدولارات .. اما مندوبة شركة الاعلانات فقد كانت اخطر على الملك من المندوب رغم حنكة هذا الاخير وبراعته في الاقناع ..

وتدور الاحداث في الفيلم . وتتابع المواقف لتؤدي في النهاية الى وقوع الملك « شاهدوف » بين يدي لجنة التحقيق في النشاط المعادي لامريكا، ان الظروف التي ادت الى تهمة الملك شاهدوف بالشيوعية والنشاط ضد امريكا هي نفسها التي ادت الى تهمة شارلي شابلن .. بل واننا ننسى ان امامنا الملك « شاهدوف » وحده او شارلي شابلن .. اننا نرى «هانز ايسلر»(١) و«بول ربصن»(٢) و«ارثر ميللر»(٣) و«اوبنهيمر»(٤) وكبار ضباط الجيش الامريكي الذين حقق معهم ... ان محاكمة الملك « شاهدوف » كما ظهرت في « ملك في نيويورك » هي ابلغ رد على هذه المحاكمات ، وخرطوم الماء الذي يحمله الملك شاهدوف ليصيب برشاشه اوجه القضاة فيغسلها غسلا « هو افضل حل واحسن استحقاق يناله هؤلاء .. » – مع الاسف لم نستطع متابعة مشاهده المحاكمة اذ كانت الرقابة قد حذفت بعض المشاهد من هذا الفيلم وخاصة من مشاهد المحاكمة (عرض الفيلم في بيروت في شتاء ١٩٥٨ .)–

ولكن شابلن لا يفقد الامل في الاصلاح . فالسجان الفظ الذي يقوم على حراسة الصبي يتنبأ متفائلا في اواخر مشاهد هذا الفيلم : (ان هذه الاوضاع لن تدوم) ان شارلي لا يفقد الامل بشعب امريكا .. ان شعب امريكا كاي شعب في العالم تنطوي في اعماقه مشاعر اخوية عميقه نحو شعوب العالم اجمع ولكنه مع الأسف ضحية « جماعات خطرة تستغله وتحتكر خيراته وتسيطر على سياسته فتوجهها الى خدمة اهدافها ومصالحها » ...

وفي المشهد الاخير بينما تكون الطائرة تحلق بالملك شاهدوف فوق ناطحات السحاب يرفع قبعته تحية لامريكا وينتهي الفيلم بعبارة الملك « شاهدوف » الاخيرة : — There's nothing to worry about (ليس هنا ما يدعو الى القلق)

اجل ليس هناك ما يدعو الى القلق ، فسياتي اليوم الذي يجد فيه الانسان نفسه ويفهم معنى الحياة فهما كاملا مرتبطا بخير الانسانية جمعاء .

فاروق سعد

---

(١) مؤلف موسيقي امريكي (٢) مغني زنجي امريكي (٣) كاتب مسرحي امريكي (٤) عالم ذري .

المراجع :

— Georges Sadoul : Vie de Charlot
(Editeurs Français Reunis)

— Regards neufs sur le Cinema (Collection peuple et culture) (Editions du seuil 1953)

— Temps modernes : (Novembre 1957) : Un roi à New-York

— Cinemonde : No. 620 14ème année 18 Juin 1956

– المجلة : العدد العاشر ١٩٥٨ القاهرة : من اعلام السينما : شارلي شابلن بقلم احمد الخضري

– افلام شارلي شابلن